الكشاف

عن

حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل

في وجوه التأويل

للعلامة جار الله أبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري

(٤٦٧-٥٣٨ هـ)

تحقيق وتعليق ودراسة

الشيخ عادل أحمد عبد الموجود
الشيخ علي محمد معوض

شارك في تحقيقه

الأستاذ الدكتور فتحي عبد الرحمن أحمد حجازي

أستاذ البلاغة والنقد بكلية اللغة العربية جامعة الأزهر

الجزء الأول

مكتبة العبيكان

الطبعة الأولى

١٤١٨ هـ - ١٩٩٨ م

الناشر

مكتبة العبيكان

الرياض - طريق الملك فهد مع تقاطع العروبة
ص.ب. ٦٢٨٠٧ الرمز ١١٥٩٥
هاتف ٤٦٥٤٤٢٤ - فاكس ٤٦٥٠١٢٩

﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾﴾

﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ﴾: خوطب به الذين لم يشهدوا بدراً وكانوا يتمنون أن يحضروا مشهداً مع رسول الله ﷺ ليصيبوا من كرامة الشهادة ما نال شهداء بدر، وهم الذين ألحوا على رسول الله ﷺ في الخروج إلى المشركين[1]، وكان رأيه في الإقامة بالمدينة، يعني: وكنتم تمنون الموت قبل أن تشاهدوه وتعرفوا شدّته وصعوبة مقاساته، ﴿فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾: أي: رأيتموه معاينين مشاهدين له حين قتل بين أيديكم من قتل إخوانكم وأقاربكم وشارفتم أن تقتلوا، وهذا توبيخ لهم على تمنيهم الموت، وعلى ما تسببوا له من خروج رسول الله ﷺ بإلحاحهم عليه، ثم انهزامهم عنه وقلة ثباتهم عنده. فإن قلت: كيف يجوز تمني الشهادة وفي تمنيها تمني غلبة الكافر المسلم؟ قلت: قصد متمني الشهادة إلى نيل كرامة الشهداء لا غير، ولا يذهب وهمه إلى ذلك المتضمن، كما أن من يشرب دواء الطبيب النصراني قاصد إلى حصول المأمول من الشفاء، ولا يخطر بباله أنّ فيه جرّ منفعة وإحسان إلى عدوّ الله وتنفيقا لصناعته، ولقد قال عبد الله بن رواحة ـ رضي الله عنه ـ حين نهض إلى مؤتة وقيل له ردكم الله[2] [من البسيط]:

لَـكِـنَّـنِـي أَسْـأَلُ الـرَّحْـمَـنَ مَـغْـفِـرَةً ... وَضَـرْبَـةً ذَاتَ فَـرْغٍ تَـقْـذِفُ الـزَّبَـدَا
أو طَـعْـنَـةً بِـيَـدَي حَـرَّانَ مُـجْـهِـزَةً ... بِـحَـرْبَـةٍ تَـنـفُـذُ الأَحْـشَـاءَ وَالـكَـبِـدَا
حَـتَّـى يَـقُـولُـوا إذَا مَرُّوا عَـلَـى جَدَثِـي: ... أرشَـدَكَ الـلَّـهُ مِـنْ غَـازٍ وَقَـدْ رَشَـدَا[3]

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾

لما رمى عبد الله بن قمئة الحارثي رسول الله ﷺ بحجر فكسر رباعيته وشج وجهه، أقبل يريد قتله فذب عنه ﷺ مصعب بن عمير وهو صاحب الراية يوم بدر ويوم أحد، حتى

---

(١) قوله: «في الخروج» لعله وكان رأيهم في الخروج. (ع)
(٢) قوله: «وقيل له: ردكم الله» لعله سالمين. (ع)
(٣) لعبد الله بن رواحة حين خرج إلى غزوة مؤتة فقيل له: ردك الله سالماً، وذات فرغ: أي ولسعة الثقب. والفرغ: مصب الماء من الدلو بين العرقي. أو طعنة ذات فرغ: أي ذات سعة. ويطلق الفرغ على الدلو أيضاً. وتقذف الزبد: تمج الدم الذي يعلوه الزبد ـ أي الرغوة ـ لكثرته. وحران: عطشان إلى قتلي. وهو مجاز عن تطلبه إياه. والمجهزة: المدفقة المسرعة التي لا تبقي رمقاً. وتنفذ الأحشاء: أي تنفذ فيها. وإن ضممت التاء وكسرت الفاء، فمعناه تثقبها، والكبد: عطف خاص على عام. والجدث: القبر. والتفت إلى الغسة في قوله: وقد رشد، على أنه من كلامه، ويجوز أنه من قول الناس، ويحتمل الإخبار والدعاء، ومن غاز: تمييز.

قتله ابن قمئة وهو يرى أنه رسول الله ﷺ، فقال: قد قتلت محمداً، وصرخ صارخ: ألا إن محمداً قد قتل، وقيل: كان الصارخ الشيطان، ففشا في الناس خبر قتله فانكفئوا، فجعل رسول الله ﷺ يدعو: «إليّ عباد الله» حتى انحازت إليه طائفة من أصحابه، فلامهم على هربهم، فقالوا: يا رسول الله ـ فديناك بآبائنا وأمهاتنا ـ أتانا خبر قتلك فرعبت قلوبنا فولينا مدبرين[1] فنزلت، وروي: أنه لما صرخ الصارخ قال بعض المسلمين: ليت عبد الله بن أبيّ يأخذ لنا أمانا من أبي سفيان، وقال ناس من المنافقين: لو كان نبيا لما قتل، ارجعوا إلى إخوانكم وإلى دينكم. فقال أنس بن النضر ـ عم أنس بن مالك ـ: يا قوم، إن كان قتل محمد فإن رب محمد حيٌ لا يموت، وما تصنعون بالحياة بعد رسول الله ﷺ، فقاتلوا على ما قاتل عليه، وموتوا على ما مات عليه. ثم قال: اللهم إني أعتذر إليك مما يقول هؤلاء، وأبرأ إليك مما جاء به هؤلاء، ثم شدّ بسيفه فقاتل حتى قتل، وعن بعض المهاجرين: أنه مرّ بأنصاري يتشحط في دمه، فقال: يا فلان، أشعرت أن محمداً قد قتل، فقال: إن كان قتل فقد بلغ، قاتلوا على دينكم، (٢٩٨) والمعنى، ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ

----

٢٩٨ ـ أخرجه الطبري في تفسيره (٧/ ٢٥٤)، حديث (٧٩٤٣) من طريق محمد بن الحسين عن أحمد بن المفضل عن أسباط عن السدّي بنحوه.
ـ وعزاه الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (١/ ٢٣٢) للواقدي، في كتاب المغازي من طريق خالد بن رباح عن الأعرج.

---

(١) قلت: هذا منتزع من عدة أخبار في وقعة أحد. قال موسى بن عقبة في المغازي ومن طريقه البيهقي في الدلائل عن ابن شهاب. قال: «رمى يومئذٍ رسول الله ﷺ رجل من بني الحارث يقال له عبد الله بن قمئة، ويقال: بل رماه عتبة بن أبي وقاص، وفي الطبراني عن أبي أمامة «أن رسول الله ﷺ رماه عبد الله بن قمئة بحجر يوم أحد فشجه في وجهه وكسر رباعيته، وقال: «خذها وأنا ابن قمئة، فقال له النبي ﷺ أقمأك الله فسلط الله عليه تيس جبل فلم يزل ينطحه حتى قطعه قطعة قطعة» وروى الطبري من طريق أسباط عن السدي فذكر قصة أحد. قال: «فأتى ابن قمئة الحارثي أحد بني الحارث بن عبد مناف بن كنانة. فرمى رسول الله ﷺ بحجر فكسر أنفه ورباعيته وشجه في رأسه فأثقله وتفرق عنه أصحابه ودخل بعضهم المدينة، وانطلق بعضهم فوق الجبل، وجعل يدعوهم إلى عباد الله. إلى عباد الله. وفشا في الناس أن محمداً قتل» الحديث، وفي المغازي لابن إسحاق ومن طريقه الطبري عن الزهري، ومحمد بن محمد بن حبان وعاصم بن عمر، وغيرهم فذكر قصة أحد. قال «ولم يزل مصعب بن عمير يقاتل دونه ومعه لواؤه حتى قتل»، وكان الذي أصابه ابن قمئة وهو يظن أنه النبي ﷺ. فرجع إلى قريش فقال: لقد قتلت محمداً. وعند الواقدي عن ابن أبي سبرة عن خالد بن رباح عن الأعرج قال: «لما صاح الشيطان يوم أحد إن محمداً قد قتل». قال أبو سفيان: أيكم قتل محمداً؟ قال ابن قمئة: أنا. وأما قوله: فلا مهم على هربهم إلى آخره فرواه..... قوله: أنه لما صرخ الصارخ قال بعض المسلمين: ليت عبد الله ابن أبي يأخذ لنا أماناً من أبي سفيان، هو من رواية السدي المتقدمة ولفظه: فقال بعض أصحاب الصخرة ليت لنا رسولاً إلى عبد الله بن أبي =

﴿خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾: فسيخلو كما خلوا، وكما أن أتباعهم بقوا متمسكين بدينهم بعد خلوهم، فعليكم أن تتمسكوا بدينه بعد خلوه، لأن الغرض من بعثة الرسل[1] تبليغ الرسالة وإلزام الحجة، لا وجوده بين أظهر قومه، ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ﴾: الفاء معلقة للجملة الشرطية بالجملة قبلها على معنى التسبيب، والهمزة لإنكار أن يجعلوا خلو الرسل قبله سبباً لانقلابهم على أعقابهم بعد هلاكه بموت أو قتل، مع علمهم أنّ خلو الرسل قبله وبقاء دينهم متمسكا به يجب أن يجعل سبباً للتمسك بدين محمد ﷺ، لا للانقلاب عنه. فإن قلت: لم ذكر القتل وقد علم أنه لا يقتل؟ قلت: لكونه مجوّزاً عند المخاطبين. فإن قلت: أما علموه من ناحية قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧]؟ قلت: هذا مما يختص بالعلماء منهم وذوي البصيرة. ألا ترى أنهم سمعوا بخبر قتله فهربوا، على أنه يحتمل العصمة من فتنة الناس وإذلالهم، والانقلاب على الأعقاب: الإدبار عما كان رسول الله ﷺ يقوم به من أمر الجهاد وغيره، وقيل: الارتداد، وما ارتد أحد من المسلمين ذلك اليوم إلا ما كان من قول المنافقين، ويجوز أن يكون على وجه التغليظ عليهم فيما كان منهم من الفرار والانكشاف عن رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ وإسلامه[2]، ﴿فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾: فما ضر إلا نفسه، لأن الله تعالى لا يجوز عليه المضارّ والمنافع، ﴿وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾: الذين لم ينقلبوا كأنس بن النضر وأضرابه، وسماهم شاكرين، لأنهم شكروا نعمة الإسلام فيما فعلوا. والمعنى: أن موت الأنفس محال أن يكون إلا بمشيئة الله، فأخرجه مخرج فعل لا ينبغي لأحد أن يقدم عليه إلا أن يأذن الله له فيه تمثيلاً، ولأن ملك الموت هو الموكل بذلك، فليس له أن يقبض نفساً إلا بإذن من الله، وهو على معنيين: أحدهما: تحريضهم على الجهاد وتشجيعهم على لقاء العدوّ بإعلامهم أن الحذر لا ينفع، وأن أحداً لا يموت قبل بلوغ أجله، وإن خوّض المهالك واقتحم المعارك، والثاني: ذكر ما صنع الله برسوله عند غلبة االعدو والتفافهم عليه وإسلام قومه له، نهزة للمختلس من الحفظ والكلاءة وتأخير الأجل.

= فيأخذ لنا أمنة من أبي سفيان. قوله: «وقال ناس من المنافقين: لو كان نبياً ما قتل. ارجعوا إلى إخوانكم وإلى دينكم. فقال أنس بن النضر عم أنس: يا قوم إن كان قتل محمد فإن رب محمد حي لا يموت. الحديث: هو في آخر رواية السدي المذكورة. قوله: وعن بعض المهاجرين أنه مر بأنصاري يتشحط في دمه فقال: يا فلان أشعرت أن محمداً قد قتل. فقال: «إن كان قد قتل فقد بلغ. فقاتلوا عن دينكم» رواه الطبري من رواية ابن أبي نجيح عن مجاهد «أن رجلاً من المهاجرين مر على رجل من الأنصار وهو يتشحط» فذكره في كلام طويل.

(١) قوله: «من بعثة الرسل» لعله الرسول. (ع)

(٢) قوله: «وإسلامه» أي: تركه للعدو. (ع)